

## لغة الشعر وطاقة الإبداع

أ. سليمان العيسى

### ١ - لغة الشعر

قال صديقي، وهو يتلو أبياتاً من الشعر،  
حفظها منذ أمدٍ بعيد:

وزنٌ وقافية، وكلامٌ عربيٌّ سليم،  
لا يعتريه خطأ ولا خلل،

وتقول لي: إنه ليس من الشعر في شيء.

فما لغة الشعر هذه؟ ماسرته؟

كيف أضع يدي عليه؟

هل لي أن ألمس هذا السرّ ولو بطرف بناي؟

أرجو أن تجلّو لي المشكلة،

أو تضعني على حافتيها على الأقل.

قلتُ بإيجاز:

سأتيك بمثال.. والمثال خيرٌ من الشرح؛

بيّنين من شعرنا القديم..

رُبّما كنت قد حفظتهما مثلي..

ثم أنقلك خطوةً خطوةً، وكلمةً كلمةً،

إلى مكان الجمال فيهما.. إلى لغة الشعر.

يقولُ الخطيئة - تعرفُ الخطيئة طبعاً،

وتحفظُ له على الأرجح - مخاطبًا الخليفةَ عمر بن الخطاب،  
وكان قد سَجَنه في قعر بئرٍ مُظلمة، كما تقولُ الرواية،  
لذنبٍ اقْتَرَفَه:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرخٍ  
زُغِبِ الحواصلِ...  
لأ ماءٍ ولا شَجَرٍ؟

أَلْقَيْتَ كاسِئَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ  
فاغْفِرْ - عليك سلامُ الله - يا عُمَرُ  
هذا السؤالُ الحائرُ المجرِحُ: ماذا تقولُ؟  
والأفراخُ - أطفالُ الشاعر - ..  
الرُّغْبُ الحواصل، المَلَقُونَ في وادي ذي مَرخٍ،  
المقفر، القاحل، (لا ماءٌ ولا شَجَر)..  
هذا الجو الرائع الذي استطاعَ الشاعر  
أن يضعنا فيه، مع أطفاله المحرومين، في وادي ذي مَرخٍ،  
بمذه الكثافة من الألفاظ المشبعة، الموحية،  
والصُّور البديعة..

هذا السؤال.. وما تلاه في البيت..  
هو النبضُ الحي.. هو الشعرُ بعينه..  
السؤالُ نفسه: ماذا تقولُ؟  
طاقةٌ شعرية لا حدودَ لها..

ولغة بعيدة الأثر في النفس..

نفس الخليفة، ونفس القارئ معاً.

ثم تبدأ لغة الشعر بفقدان طاقتها المشعة

شيئاً فشيئاً.. حين ننتقل إلى الشطر الأول

من البيت الثاني: ألقىت كاسبهم..

ولو ظلت حية نابضة.. ولا سيما في «قعر مظلمة».

ولكن هذه اللغة تكاد تفقد كل حرارتها ونبضها

حين نصل إلى هذا الطلّب المقرون بالدعاء،

في الشطر الثاني من البيت: فاغفر، عليك سلام الله، يا عمراً!

إنه كلام يكاد يكون عادياً، مألوفاً، يقوله

أي إنسان، ليس فيه شيء من جهد الخيال،

وطاقة الإبداع..

والشطر - إلى هذا كله - وزن وقافية رنانة،

وكلام عربي سليم،

لا يعتريه خطأ ولا خلل..

أمل أن أكون بهذا المثال العابر قد وضعت يدك

على حافة السر.. في لغة الشعر.

هز صديقي رأسه، وردد المثل الشائع،

الذي يحفظه أيضاً منذ أمد بعيد: صحيح..

ليس كل ما يلمع ذهباً.

## ٢ - طاقة الإبداع

أنت لا تستطيع أن تجمع أزهار الحديقة كلها  
في إضمامة..

لا بد أن يفوتك كثير منها

وأنت تبحث عن اللون والعبير.

أعود إلى موضوع الحوار في .. لغة الشعر.

قرأت تعليقي عنها مرتين..

ثم قالت - كان سؤالها مفاجئاً :-

هل يمكن أن تكون ومضات الإبداع كلها

في مستوى واحد من الجمال؟

هل يمكن أن تكون لغة الشعر

- التي تحدثت عنها - كلها رائعة؟

ألا يمكن أن تكون ومضة أروع،

وومضة أقل روعة، وومضة تكاد تحبو،

ولكنها تظل تنتمي إلى عالم الوميض؟

قلت: هذا صحيح. الإبداع لا يمكن

أن يكون باهرًا في كل شيء.

إنه أشبه بلمعان الكواكب في كبد السماء.

هناك ما لا يُحصى من ألوان الإشعاع والوهج:

القوي، والضعيف، والوسط  
والذي نراه بوضوح، والذي لا يكاد يرى..  
وما بين هذا كله..  
ولكنه يظل كله ينتمي إلى عالم الوميض،  
كما ذكرت قبل قليل.  
والبون شاسع.. شاسع.. بين الوميض والحمود.  
قالت: هل لي بمثال على ذلك؟  
قلت: نعم! هذا البيت الرائع لشاعرنا الأندلسي،  
لا يخضرنى اسمه الآن، يتحدث عن جدول رقرق:

تروغ حصاه حاليه العدارى  
فتلمس جانب العقد التظيم

أية دهشة هذه التي تعترى الصبيّة الحسنة،  
تقف أمام الجدول المنساب أمامها،  
وتروغها - والدهشة تتكثف في «تروغ» -  
حصاه النقيّة البراقة..  
فتلمس جانب عقدها الجميل..  
خشية أن تكون حباته قد انفرطت في قاع الجدول.

لقد استطاع الشاعر أن يكتف «الحالة» البديعة  
في لون من التركيب العجيب.. يشدك إلى

الدهشة والمُتعة في آن.

أما بيته الآخر في المقطوعة نفسها:

نزلنا دوحه فحنا علينا

حُنُو المَرْضِعَاتِ عَلَى الفطيمِ

فإنه لا يخلو من ومضة جمالٍ هادئٍ، حميمٍ، ولكنه لا يمكن أن يكونَ بمستوى الوهج الذي نُحِثُّه في البيتِ الأولِ.

قالت: هذا - بالضبط - ما أردتُ أن أنبئه إليه.

وشكرًا على أن قمتَ بإيضاحه في مثال.

قلتُ: إنه مثالٌ عابرٌ أو مضى في الذاكرة..

هناك أمثلةٌ كثيرة.. أجملٌ وأكمل..

بالتأكيد.